ترجمات

تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي:
بعض نقاط تقارب وتباعد تخصصات غير متجانسة

-لورانس روزييه(Laurence Rosier)*-

ترجمة: أ. عزيز نعمان

جامعة مولود معمري- تيزي وزو

مقدمة:

هل بإمكان تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي[1] أن يصبحا وجهين متكاملين لمقاربة متماثلة تماثلا محسوسا مجالها المواضيع النوعية؟ فالأول يشتغل دون شك، وكما يدل على ذلك اسمه، على كيان تحليل خطابات تشمل الأدب وهي قابلة إلى حد ما لكي تحدّد بوضوح، في حين، يمنح الثاني أفضلية لموضوع يبدو أكثر تجانسا ومحدودية هو النص الأدبي. لكن ألا يسعى كلاهما لفهم ما خلف الكلمات من "رؤية للعالم"؟ ويفترض كل منهما فلسفة للتاريخ، ونظرية للذات ورؤية اجتماعية ونقدية للعالم افتراضا مسبقا؟ أو لا يميّز النموذج الثلاثي "دمج تاريخي (historisation) ودمج سياقي(contextualisation) ودمج اجتماعي(socialiation)" (دوشي Duchet وفاشون Vachon، 1998) الأبحاث المقامة في تحليل الخطاب مقدار ما هو الحال في النقد الاجتماعي؟ أوليس البعد النقدي بعدا مشتركا بينهما؟ أو لم يكن كلاهما (أيزالان كذلك؟) "نظريات ناشطة (militantes)"؟ ذلك ما أكده دوشي سنة 1971: "إذا وجب تقديم تعريف (للنقد الاجتماعي) فإنه يعدّ ناشطا ينحو في ذلك منحنى السيميائيات النقدية للإيديولوجيا». ويظهر صدى ذلك مع متيرون (Mitterand)

الذي تحدث عن "نقد اجتماعي ناشط" أثناء اختتام أشغال ملتقى تورنتو (Toronto) المنعقد سنة 1972 (تم نشرها سنة 1975). كما كشف "قلق" ميشل بيشو (Michel Pêcheux) بدوره عن تداخل الالتزام السياسي مع البناء النظري:

"أيتعلق الأمر في نهاية المطاف بقضية باحثين اشتراكيين منكبين على تحليل الخطاب من خلال الخطاب الاشتراكي الذي اتفق على أنه بمثابة تلك المرآة التاريخية الاستثنائية التي يفترض أن يأتي "العلم" فيها على وجه التحديد ليتكشف فيما هو سياسي؟» (ص.6).

إن مقارنة النسيج الأدبي في خاصيته الاجتماعية تلتقي بذلك مع عملية فك ما بداخل الممارسات الخطابية من إيديولوجيا مشفّرة وذلك في عملية البحث عن تمفصل الواقع والعالم ومادية النصوص الخطابية. وقد تمّ توضيح ظروف نشأة وإنتاج النصوص والخطابات وانتقالها من خلال دراسات أنجزت من "الجانبين"، حتى وإن كان الشق الإيديولوجي كبيرا بين هيجيلية (l'hégélianisme) مؤسِّسي النقد الاجتماعي وبين الثبات الألتوسيري (althussérien) المميز لمحلّلي الخطاب الأوائل.

تتجلى الفروقات أيضا على مستوى الموضوعات: حيث يهتم النقد الاجتماعي بموضوع تقليدي، هو الأدب، مقترحا مقاربة نفض عنها الغبار بصفة كلية، ويتأسس تحليل الخطاب بـ"استيلائه" على مجالات اتخذت الخطاب ميدان بحث لها.

سؤالنا التمهيدي، العادي، بخصوص العلاقات الوثيقة الرابطة بين تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي قد تم طرحه في عديد المرات: حيث يفرض الموقف الإبستمولوجي المشترك بين النظريات "المختلطة" (hybrides)، والتي ينظر إليها باعتبارها فضاءات للاختلاف، يفرض ذلك الموقف فعلا، وبصفة دورية، على

بعض أولئك الفاعلين التساؤل حول الاتفاقات النظرية والمناهج والمدونات والنواة النظرية التطبيقية "الصلبة" المميزة لها. وإلى جانب ذلك، جعل بعض الباحثين أنفسهم وكأنهم ممرّرون نظريّون (passeurs théoriques) ينادون بشكل صريح إلى وفاق بين الحركتين. سنعود إلى تلك المسألة لاحقا.

لا ينبغي بالمقابل على سحر التسميات الشاملة إخفاء التنوع الحاصل في المقاربات وتعدد المرجعية النظرية، كما هو الحال مثلا في "كتاب النقد الاجتماعي" (manuel de sociocritique) لبيير زيما (Pierre Zima)، أو كذلك مستهلات قاموس "تحليل الخطاب" الذي قام كل من مانغونو (Maingueneau) وشارودو (Charaudeau) بنشره. ثمة إطارات نقدية اجتماعية تعد بمثابة تحليلات للخطاب.

تفرض هذه الملاحظات إعادة النظر، على أقل تقدير، في العلاقات الجامعة بين تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي من زاوية الموضوعات (خطاب، نص، جنس، أدب...) وما نبحث عنه فيها (إيديولوجيا، خاصية اجتماعية، مشهورات - doxa- ، رؤيا العالم...) والمناهج (اللسانية، الخطابية، الأدبية، المنطقية الاجتماعية، السيميائية، الأجناسية....) والإطارات النظرية المرجعية (البنيوية، المادية، التحليل النفسي...).

سنحاول إذن مواجهة نظرتنا للعلاقات الرابطة بين تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي اعتمادا على مسار نقدي معرفي (épistémocritique) بسيط ومتشطي منتظم وفق الشكل الآتي:

- الأماكن والأشخاص، أي الأماكن الوسائطية (médiologiques) للتداخلات النظرية (الملتقيات)، وممررو الأفكار، أو الأعوان الناقلون لتلك الأفكار.

- التصورات أو "المفاهيم"، سواء أكانت مرتحلة أم تم صبها في قالب نظري واحد: ما هي التصورات/ المفاهيم القاعدية لـ تحليل الخطاب؟ وللنقد الاجتماعي؟

- المدونة التي تكون على حسب زاوية الأجناس الخاصة وإشكالية موضوع الأدب، وعلى حسب مفاهيم الخطاب والنص أيضا التي تصير، عن ترادف وتقابل، مواضيع متقاربة (جوبير Jaubert، 2002). وتتفق الآراء في مسألة افتراض وجود شرط أساسي لكل منها هو نظرية الخطاب مقابل نظرية النص أو الموضوع الأدبي.

هذه النظرة التاريخية هي رؤية "خارجية" تسعى لفهم العناصر النظرية المكونة لحقول معرفية تتفتح حدودها على فروع معرفية أخرى تبعا لخطابات ممكنة هي لأعوان ينتمون إلى الحقل نفسه: مداخلات في الملتقيات، نشر أعمال جماعية، قواميس، كتب، قوائم المصادر والمراجع، مواقع أنترنيت، مداخلات شخصية... سنحاول، بدراسة الطريقة التي يتم على أساسها تلفظ تلك التخصصات، أن نرى كيف تستطيع أن تبدو متباعدة تارة ومتقاربة تارة أخرى، وما التمفصلات الإيجابية التي بإمكانها أن تشكلها.

أماكن وأشخاص:

معاينة أولى: إذا لم يكن النقد الاجتماعي يتوانى عن الإشارة إلى صور تحليل الخطاب الوفية (دون أن تعد تلك الصور، بالمقابل وفي الأوقات كلها، حركة منظمة) فإن العكس غير صحيح. ويوضح هنري متيرون (Henri Mitterand) وريجين روبين (Régine Robin) ومارك أنجنو (Marc Angenot)، عبر عمليات تفكير ابستيمولوجية، الروابط المقامة بين النقد الاجتماعي وتحليل الخطاب، وتسعى تأملات أموسي (Amossy) الفكرية حاليا لتقريب تحليل الخطاب (كما يحدد في القاموس) من النقد الاجتماعي بواسطة الأدب.

لاستيعاب المواقف النظرية استيعابا دقيقا ينبغي رسم المسيرات الفكرية لهؤلاء الفاعلين بصفة رسمية، لكننا استخلصنا، من خلال قراءاتنا، الواقعة التالية: انعقدت متلقيات "قاعدية" عديدة ما بين 1966 و1975، وقد حضر فيها ممثلو تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي. فلنقل بداية بأن سنوات الستينيات تبدو، بالنسبة لملاحظ معاصر، شاهدة على رغبة في توحد نظري بين علوم اللغة التي كانت في حالة انطلاق وبين الحقل الأدبي، وإن لم يبلغ ذلك الفوران، بصفة نظامية، درجة الوفاق النظري الحقيقي فإنه تجسد في مشاريع تحريرية عديدة: فيما يخص، ظهر العدد الأول من "أدب" (littérature) ومقال كلود دوشي المنهجي الموسوم: "في سبيل نقد اجتماعي"(Pour une sociocritique) ، إنه عدد تاريخي ويانوسي (Janusien): نجد فيه (بقلم جاك لينهارد Jacques) (Leenhard تكريما لـ لوسيان غودلمان (Lucien Godlman) الحديث الوفاة، ومقالين مخصصين لباختين (Bakthine) ترجم منهما في الآونة الأخيرة إلى الفرنسية رابليه (Rabelais) ودستويوفسكي (Dostoïevski).

توقفنا- من جملة ملتقيات تلك السنوات (لمزيد من التفاصيل، ينظر: رُوزييه Rosier ، 2004) - عند ملتقيين تم تنظيمهما في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي، وهما ملتقيان يظهران ميزة التقاء ممثلي الحركتين، وميزة التساؤل حول تأسس تخصصي النقد الاجتماعي وتحليل الخطاب.

انعقد بجامعة تورنتو، في سنة 1972، ملتقى "القراءة النقدية الاجتماعية للنص الروائي" (La lecture sociocritique du texte romanesque) وكان من تنظيم ج. فلكونير (G. Falconer) و ه. متيرون. وقام كل من فريديرك جامسون (Frederic Jameson) وبيير باربيريس (Pierre Barbéris) وبول زومتور (Paul Zumthor) وفرانسواز غايار (Françoise Gaillard) وآخرين باستكشاف مختلف أوجه علم الاجتماع الأدبي والنقد الاجتماعي

انطلاقا من مؤلفين أو أجناس منتمين في الغالب إلى القرن التاسع عشر (فلوبيرا Flaubert، بالزاك Balzac، شاتوبريون Chateaubriand، سو Sue). وتم بالمقابل استكشاف فضاءات أخرى، كالرواية الغزامية(courtois)؛ نتالي ساروت (Nathalie Sarraute)؛ فاليري لاربو (Valery Larbaud)؛ أوكتاف ميربو (Octave Mirbeau) أو الرواية الإفريقية المعاصرة أيضا.

إن صدور أشغال الملتقى سنة 1975 هام، فثمة - إلى جانب تنوع المداخلات وثرائها- نصوص مصاحبة (paratextes) مكونة من فعاليات التقديم والاختتام والنقاشات المسجلة؛ ويبدو فعلا أن النقاشات "نشطت" وكشفت عن اختلافات نظرية بخصوص مسألة المعنى (إلى أي مستوى يتواجد في النص تواجدا مسبقا؟ كيف يتم الحفاظ على دلالة نص "فُرضت" عليه قراءة معينة؟...) والإيديولوجيا. لا لف ولا دوران في استنتاجات متيرون:

"لم نفلح (...) في استخلاص تعريف للنقد الاجتماعي ولا في تكوين فكرة واضحة عن أهدافه وآفاقه ولغاته" (ص.311).

يتم انعقاد، سنتين بعد ذلك دائما في تورونتو، ملتقى جديد من تنظيم ب.ليون (P. Léon) وهنري متيرون دائما، وتُنشر أشغاله تحت عنوان تحليل الخطاب، وتحضر فيه ريجين روبين التي لم تتوانى منذ بداياتها الأولى مع تحليل الخطاب عن مساءلة حدود الحقول المعرفية والأسس الإبستمولوجية (ينظر إلى كتاب التاريخ واللسانيات "Histoire et linguistique " الذي ظهر سنة 1973 وذاع سيطه): قامت دون شك بـ "استجلاب" مرجعياتحليل الخطاباصة بـ تحليل الخطاب على الطريقة الفرنسية كألتوسير (Althusser) أو بيشو مرتكزة في ذلك على مدونات التاريخ ومدونات أدبية كذلك، كما تدل مداخلتها في الملتقي على ذلك.

من المهم معرفة ما يمكن أن يجمع تحت ذلك اللواء في تلك الفترة، فقد جاءت مجموعة تلك الأعمال مقسمة إلى أربعة أقسام: التحليل اللساني للخطاب، أشكال الخطاب الأدبي، الخطاب والإيديولوجيا، الخطاب والسيميولوجيا. ونجد فيها بشكل غير منظم، على سبيل المثال لا الحصر، مداخلات أ.دوكرو (D. Ducrot)، وج. ك. أونسكومبر (J. C .Anscombres)، وت. تودوروف (T.Todorv)، وم. ريفاتير (M. Riffaterre)، وج. ك. شوفالييه (J. C. Chevalier)، وج. جينيت (G. Genette) وج. كريستيفا (J. Kristeva) ور. روبين، وهـ. ميشونيك (H. Meschonnic)...

المدونات متنوعة وكذلك هي الإشكالات: دراسات متعددة اللغات؛ لغة اجتماعية سياسية خاصة بجماعة عُرفت بدراسات متعددة اللغات: لغة اجتماعية سياسية خاصة بالجماعة الدينية للمُجهرين في صلواتهم (glossolaliste)؛ خطاب ذهاني(psychotique)؛ مدونة لغة من نمط البنى الحجاجية "إلا إذا" (moins) que و"كذلك" (aussi que)؛ حظ وافر للشعر (من هوارس Horace إلى ملارميه Mallarmé تبعا للإيقاع والبحر). وارتكزت الفصيلة المخصصة للخطاب والإيديولوجيا، على مستوى مسرح كيبيك الجديد، على كامو (Camus) وسيلين (Céline) في معرض إيراد أمثلة حول اللسانيات...روبين وحدها هي من يشير إلى تحليل الخطاب الفرنسي (لم يسمى بهذا الاسم)، الذي كان محل التسمية الرمزية لـ م. بيشو وب. هنري (P. Henry) ول. ألتوسير، مستعينة بالمفاهيم الألتوسيرية (المعادة في قسم منها بغرامسكي Gramsci) والمرتبطة بالجهاز القيادي (l'appareil hégémonique) والجهاز الإيديولوجي للدولة باعتبارها مفاهيم إجرائية. وتشتغل على مدونة تاريخ (خطاب تورغو Turgo وبرلمانيين يعود تاريخهم إلى سنة 1776).

أي وحدة نظرية مع ذلك التباين؟ فبروز موضوع معين شيء، وتوسيع إشكاليات معينة شيء آخر. ويبقى الشعور الذي سيعبر عنه متيرون (مجددا) مع اختتام أشغال الملتقى والذي مفاده أن: "(...) تحليل الخطاب لا يزال بصدد البحث عن كيفية تحديد أهدافه ومناهجه ولغته (...). من الواضح أن الاتفاق الأكبر تجسد عبر المداخلات التي اقترحت، من جهة، عناصر نحو الخطاب (Grammaire du discours) مهما كان منتج الخطاب الهدف، والتي سعت- من جهة أخرى- لأن تمنح الخطاب موقعا من حيث زوايا تحديده وظروف إنتاجه، أو تشكله، أي إنها سعت في نهاية المطاف لتقييم رهانات الخطاب بصفة واضحة... إنها رغبة شاملة في فك التعمية عن الخطابات القيادية" (ص. 242).

لم يكن الباحثون في تلك الفترة يستعملون لغة الخشب، وكانوا يعترفون بالمتاهات النظرية والصعاب المواجهة لعملية خلق تقاطع بين التخصصات.

لما ينشر "هنري متيون"، الحاضر في المتلقيين، كتاب "خطاب الرواية" (Le discours du roman) سنة 1980 سينسج علاقات وثيقة بين مقاربة نقدية اجتماعية للنص وقاعدة تحليل الخطاب.

ما الآفاق الجديدة التي تم فتحها؟

إن الانتقال من مصطلح النص إلى مصطلح الخطاب تبعته انتقالات نظرية قصد الخروج، يقول "متيرون"، من نقد اجتماعي ضيق: ينادي (متيرون) بخلق تقاربات بين التحليل الأدبي وتحليل الخطاب مشيرا إلى مفاهيم خاصة بتحليل الخطاب كمفهوم الخلفية (préconstruit)، ويذكر هاهنا ر. روبين: تحيل الخلفية إلى ما يعرفه كل واحد، إلى مضمون فكرة "الذات الكونية" (ص.89). وينبغي لذلك المفهوم، يقول "متيرون" مواصلا، أن يسمح بتقييم العلاقة الرابطة بين البنى الخطابية والوضع الإيديولوجي، وتأسيس نظرية مادية

للخطاب. ويقصد بذلك بلوغ نقد اجتماعي مرتبط بالشموليات (الدالة على نقد اجتماعي خاص بالتناصيات) intertextualités ، حيث تتداخل دراسة تعددية الأصوات (la polyphonie) وما بين الخطابية (l'interdiscursivité) (بالمعنى القريب من التناصية) لمعرفة "كيف تتولد دلالة نص معين وتتوزع على مستوى معين من قراءته، والقراءة هاهنا قراءة إيديولوجية" (ص.228). وارتكزت استشهاداته بصفة متفاوتة على أورباك (Auerbach) وروبين وغولدمان وسلاكتا (Slakta) ودوشي وغريفيل (Grivel)...

سنحدد إذن، داخل ذلك المجرى، موقع كتاب ريجين روبين المرتبط بالواقعية الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي خلال سنوات الثلاثينات (ظهر الكتاب سنة1986)، التي (روبين)- وهي تشتغل على المركب (Syntagme) في طور الظهور (مقاربة تقليدية لتحليل الخطاب)- راحت تجمع دراسة مخطط العلاقات الاجتماعية (sociogramme) للبطل- التي أسيء توظيفها في الخيال الروسي- مع مقاربة "للحوارية" الباختينية، وتلك "جمالية مستحلية" لأنها جمالية اقتصرت على الإيديولوجي.

لا يبدو لنا أن محللي الخطاب الفرنسيين هم من شقوا تلك الطريق (إذا ما استثنينا أعمال روبين ومتيرون): أيكون السبب موضوع "الأدب" ذاته؟ أيكون السبب البنى التأسيسية التي قامت إما بجمع تحليل الخطاب ونظريات الإعلام/ الاتصال بصفة تدريجية، أو دمج تحليل الخطاب في علوم اللغة بدل دمجه في "علوم" الأدبي؟

لم يكشف عنوان الملتقى الذي نظمه روث أموسي (Ruth Amossy) ودومينيك مانغونو في سوريزيه (Cerisy) سنة 2002 عن خلاف بل عن انفصال (سواء صرح بذلك أو تم التلميح إليه): "دور تحليل الخطاب: منعرج في الدراسات الأدبية؟ "(L'apport de l'analyse du discours: un tournant dans

les études littéraires). وقد أعيدت صياغته لغاية النشر وفق الصيغة التالية: "تحليل الخطاب في الدراسات الأدبية" (L'analyse du discours dans les études littéraires). وكأن تحليل الخطاب مدمج إلى حد ما في الدراسات الأدبية، وذلك ما يفضي إلى عملية دمج عكسية له مقارنة مع تلك التي أشرنا إليها في مستهل مقالنا هذا.

الشخصية الأخرى التي أخذت علاقات تحليل الخطاب بالنقد الاجتماعي مأخذ الجد هي البلجيكي مارك أونجنو، أستاذ مرسم بجامعة ماك غيل (Mac Gill) في مونريال (قسم اللغة الفرنسية وآدابها)، وأدار من 1990 إلى غاية 1997 مركز ما بين الجامعات لتحليل الخطاب والنقد الاجتماعي للنصوص بمونريال (رفقة ريجين روبين). وتتموضع أبحاثه بشكل ملحوظ داخل تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي، مضيفا بعدا من الأبعاد الأساسية المحددة لتصوره (أونجنو) لـ تحليل الخطاب، هو البعد البلاغي والحجاجي. ويعرض في مقاله الموسوم "تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي للنص" (Analyse du discours et sociocritique du texte) (دوشي، 1998) مزايا اتحاد تحليل الخطاب معالنقد الاجتماعي مستعينا في الشرح بالأبحاث التي قادتها فرقة بحثه، لكن المقال يعلن، بصورة تشوبها المفارقة، نهاية مشروع مهد له من كل من أونجنو وروبين وغوميز مريانا (Gomez-Moriana). فيشير إلى ذلك قائلا:

«كان مركز البحث ذلك جد فعال ما بين 1990 و1997، لكن نوازل الدهر والانقطاعات الحاصلة في الميزانية أدت إلى اختفائه. وكان يصدر مجلة "خطاب اجتماعي "(social discourse) التي اختفت بدورها سنة 1997".

يكون الاتحاد مع النقد الاجتماعي ضروريا بواسطة الأدب الذي كان، في تصوره، محل إهمال تحليل الخطاب، لكنه أدب يدرك كجنس ضمن أجناس أخرى، أي أنه لم يعد مقدسا (défétichisée). هي إذن أصداء باختينية

صريحة: لم تكن جمالية الإبداع الشفوي تقول شيئا آخر كي يتم إدراك "عظم إشاعة ما يقال ويكتب داخل مجتمع معين" (أونجنو، م.س، ص140).

ما يلاحظ هو أن الطريقة التي يضبط بها أونجنو الخطاب تشكل إطارا اجتماعيا، أي إنه يطرح مواضيع للبناء لم تكن موجودة قبل البحث: "سواء تعلق الأمر بمكان وسائطي كالمقهى المغْنى (café-concert)، أو بممارسات للخطاب ككلمة هجو أو"ما يقال عن اليهود في 1889"، أو كذلك دراسة الإيديولوجيات كإيديولوجية الضغينة، فإن المحلل سيبني موضوعا ينتسب إلى "جنس" خطابي: إنه الخطاب الاجتماعي (سنعود إلى ذلك في النقطة المرتبطة بالمفاهيم).

حتى وإن كان بعض محلّلي الخطاب يعرفون عمله حول الكلام الهجائي معرفة جيدة، وقد صار مرجعا لا غنى عنه "حول الأشكال الخطابية للإيدولوجيا" لم يتم تجاوزه بعد (بافو Paveau، 2005)، وحتى وإن أثر بذلك على دراسات تظهر انتماءها إلى تحليل الخطاب (مثل عمل بورجر Burger حول "منشورات الحرب، كلمات النضال Les manifestes, paroles de combat " الصادر سنة 2002 في المجموعة التي يشرف عليها جان ميشيل آدم Jean Michel Adam) فإن استثمار محلّلي الخطاب لأعماله قليل في نهاية المطاف هو الذي لم ينقطع لحظة عن نسج علاقات نظرية وطيدة معهم.

بقي أن نشير في السياق ذاته إلى بيير زيما أحد أولئك الفاعلين، وهو مدرّس مادة الأدب المقارن في كلاغنفورت (Klagenfurt) بالنمسا، وقد نشر على وجه الخصوص "كتاب النقد الاجتماعي" (1985، تم مراجعة الكتاب وتوسيعه في طبعة 2000: يضم هذا العمل دراسات منشورة بالألمانية ومترجمة إلى الفرنسية). ويبدو منتهجا مسارا "ذاتيا" ثقافيا (culturaliste) لكنه ينخرط بوضوح في النقد الاجتماعي: يقارب زيما باختين بلوكاتش (Lukacs) وغولدمان

عبر مفهومي المفارقة (ambivalence) وتعدد الأصوات (polyphonie) كما كان الحال مع مصدر الخلافات اللسانية. ويستحضر أيضا تحليل الخطاب، فيشير فعلا وبشكل صريح إلى بيشو جاعلا فكره بالمقابل مقتصرا على التجلي الإيديولوجي للكلمات: "على الصعيد المعجمي ألح ميشيل بيشو كثيرا على الطابع الاجتماعي لـ "الكلمات": "يمكن لصراع الطبقات كله أن يتلخص أحيانا في صراع من أجل كلمة، ضد كلمة أخرى"- مقطع من "حقائق باليس" (vérités de la Palice) (ص.121).

تم استحضار مفاهيم التناص (intertexte) وداخل الخطاب (interdiscours) والحوارية (dialogisme) والأشكال الخطابية (formes discursives) من منظور نقدي اجتماعي باعتبارها أدوات لممارسة "قراءة اجتماعية تاريخية للنص"، وهي قراءة غير قابلة للانفصال عن قراءة ما هو إيديولوجي في خاصيته النصية.

تسعى تلك المقاربة، على الرغم من أثر الاستعراض النظري، لحل إشكالية الذات استنادا إلى بعد نقدي اجتماعي (عبر مفهوم اللهجة sociolecte) وتمنح مسألة تلقي الأعمال الأدبية مكانة واسعة (علم اجتماع القراءة)، وتجعل مدوناتها متعددة اللغات عملها مندرجا أيضا ضمن إطار الآداب المقارنة.

يحتل زيما مجددا، هو من شكل مرجعية في مرحلة معينة، موضعا نظاميا شاذا، وتظل أعماله غير معروفة بما فيه الكفاية.

فصل عن المركز، نقل نظري وتطبيقي، تحويل نظامي (وجزئي كذلك): أيُقاسي أولئك الناطقون باسم عملية تنظير قائمة على إحداث تداخل بين تحليل الخطاب والنقد الاجتماعي في منفاهم الكيبيكي؟ أتؤول توجهاتهم المركبة والمشتركة، وكذا طريقة إنشائهم لمواضيع دراسية إلى نماذج تصعب عمليات "إعادة إنتاجها"؟ أتكون طبيعة المواضيع في حد ذاتها (أدب، جمال، أماكن

وسائطية) هي ما يطرح الإشكال؟ بين علم الاجتماع الأدبي والأسلوبية وبين تحليل الخطاب والتداولية أين يوضع "تحليل الخطاب النقد الاجتماعي"؟

إن اتخاذ وضعيات شاذة يفترض بالمقابل وضعيات مهيمنة ومركزية، غير أن ذلك الحقلين لا يتواجدان في وضعية "مهيمنة" مقارنة بـ "حقول متعددة (hyper-champs)، إليها يكون انتماؤهما، سواء تعلق الأمر بحقل اللسانيات بالنسبة لـ تحليل الخطاب أو حقل الأدب بالنسبة لـالنقد الاجتماعي، حتى وإن احتل بعض فاعلي تلك الحقول، وفق الترتيب السابق، وضعيات قانونية وإستراتيجية تسمح لهم بإضفاء مشروعية على نشاطات بحثهم وإطارهم النظري، وقد كان ذلك البعد النظامي موضع تشديد خاص عند دوشي وفاشون (المرجع السابق) وهما يشيران إلى موقف "التجاهل الشائن" الذي تتخذه فرنسا حيال عالم بحث أوروبي برمته، معيدين طرح مسألة نسبية النماذج النظرية المهيمنة المقامة على حسب مقاييس الأمم والثقافات.

يشترك أيضا أولئك الباحثون الذين يجمعون عن رغبة بين تحليل الخطاب ون ا في مسألة الرجوع إلى باختين الذي يبدو بمثابة منظر "المصالحة" بين اللسانيات والأدب، بين الهيجيليين والألتوسيريين، بين عملية البحث عن كلية وكشف التناقضات الإيديولوجية.

إن قراءة الأعمال المنجزة تحت العنوانين قراءة متصلة تدفع إلى الالتفات الآن بصورة مركزة إلى التصورات أو المفاهيم المستعملة: بالفعل يستعمل الباحثون أحيانا الكلمات نفسها، لكن أتبقى برامج الدلالة والإطارات النظرية هي نفسها في ظل تلك الكلمات؟

مفاهيم مرتحلة، أو تباينات نظرية في ظل الكلمات المتماثلة؟

لـ تحليل الخطاب كما للنقد الاجتماعي "كتابهما": سبق وأن أشرنا إلى كتاب زيما، كما نشر دومنيك مانغونو، إلى جانب مساهمته في الإشراف على

وضع قاموس، خلال ذلك وبصفة متتابعة: "تمهيد إلى طرق تحليل الخطاب" (Initiation aux méthodes d'analyse du discours) (1976)؛ "تكونات الخطاب" (genèses du discours) (مارداغا Mardaga، 1984)؛ "توجهات جديدة في تحليل الخطاب" (Nouvelles tendances en analyse du discours) (1987)؛ "تحليل الخطاب، مقدمة في قراءات المحفوظات" (L'analyse du discours, introduction aux lectures de l'archive) (1991). وهي أعمال يمكن عدها "كتبا" في تحليل الخطاب كشأن "سياق العمل الأدبي" (Le contexte de l'œuvre littéraire) (1993) الذي ينضم، فضلا عن ذلك، إلى مشروع النقد الاجتماعي [2].

إن عملية الصياغة في كتاب (manuelisation) وعملية الاحتواء في قاموس (dictionnarisation) تستلزمان تجانسا على مستوى التخصصات، وتفترضان قدرة على وصف حقل البحث من خلال تحديد المجالات والمفاهيم الخاصة، وسبيل ذلك إعداد قائمة نوعية ومواضيع/ أرضيات مفضلة. وتندرج تلك الأعمال، التي قدم بعضها رؤية معينة حول النقد الاجتماعي وقدم بعضها الآخر رؤية معينة حول تحليل الخطاب، وهي رؤى مشتركة إلى حد ما على حسب الباحثين، تندرج ضمن تلك المسالك.

سبق وأن وضعنا في الواجهة المشاغل المشتركة والمرجعيات المتنقلة من حقل إلى آخر والتي يندرج ضمنها الرمز باختين: أيكون لذلك الوسط المعنوي ترجمة على مستوى وسط من الأدوات؟ لا ننوي، في إطار هذا الغرض ذي الطابع التاريخي، إعادة تحديد تلك المفاهيم التي سنطيل الحديث عنها، فمن الواضح أن يستلزم خيارنا تجاهها نظرة لا رجعة فيها بل أساسية في تحليل الخطاب ون ا.

نشير إلى أنه إضافة إلى اشتراك الحقلين في المرجعيات النظرية فإنهما يشتركان أيضا في مسعى دراسة الوسائط وشكلنتها (اللغة والواقع،

الإيدولوجيا والخطاب، الأنظمة والخطاب، العالم والصياغات اللغوية....) استنادا على "مفاهيم" واسعة النطاق (بما فيها من قوة وضعف في الوقت ذاته)، أي مفاهيم قابلة لأن تدرس من جديد وأن تضبط، بل وأن تشخص وفق منظورات البحث. لكنها، وهي تشهد انصهارا مفهوميا، تكون معرضة أيضا لفقدان قدراتها الإيضاحية جراء الحركة الكثيفة لبعض تلك المصطلحات المستعملة بالمعنى الواسع (يذهب تفكيرنا مثلا نحو مصطلح ما بين الخطاب interdiscours).

ينبغي الاتفاق أولا حول المفاهيم الأساسية و/ أو المؤسسة لـ تحليل الخطاب: بالعودة إلى تحليل الخطاب الأول وإطاره البنيوي والماركسي واللاكاني (lacanien) والى مرجعياته (فوكو، ألتوسير، بيشو) ستلفت انتباهنا كل من إيديولوجيا، والتشكيلة الخطابية (formation discursive)، وما بين (داخل) الخطاب (inter-intra-discours) والخلفية (أي الدراسة التي أعاد بول هنري القيام بها- عبر مصفاة التحليل النفسي- حول مفهوم الافتراضية المسبقة présupposition المرتبط بدوكرو). وقد تبدو المسألة "محدودة" الآن إلا أنه يمكن تبرير ذلك الخيار من وجهة نظر تاريخية علما أن النقد الاجتماعي أشار بصفة أولية إلى تلك المفاهيم لدى حديثه عن تحليل الخطاب.

ما المفاهيم المتلازمة (inhérents) التي تسجل على صعيد النقد الاجتماعي؟

تتحدث روبين (1992) عن كلية مفهومية (ensemble notionel) ذات استقرارية ضعيفة قابلة مقابل ذلك فكرة تمحور النقد الاجتماعي حول ما يقارب عشر مفاهيم (تلتف تحليل الخطاب صوصا نحو: السياق الداخلي cotexte خـارج النص hors texte، الخطاب الاجتماعي discours soial، ومخطط العلاقات الاجتماعية (sociogramme). وفي سنة 1998 حدد دوشي وفاشون

النقد الاجتماعي، في إطار بحث أدبي عام بكيبيك (بإدماج النقد الاجتماعي دون فرض قيود عليه)، بأنه مستقبل بشكل خاص وبصفة نقدية لـ "منهجيات ونظريات وأنظمة مجردة من كل أحكام مسبقة" (ص ص، 25- 26).

قمنا، بعد قراءاتنا، بتسجيل مفاهيم مخطط العلاقات الاجتماعية (sociogramme) والعنصر الإيديولوجي (idéologème) (والممارسة الأيديولوجية ideoseme)، وما بين الخطاب (المقرون إلى التناصية) والنص الاجتماعي (sociotexte) والخطاب الاجتماعي (discours social).

فلنبدأ بالمصطلح المشترك بين التخصصين، أي مصطلح ما بين الخطاب، للتحقق فيم إذا كان هو نفسه: في تحليل الخطاب، على حد قول مانغونو (1984)، يتوج ما بين الخطاب الخطاب- بالمعنى الدقيق للكلمة (stricto sensu)- فيفترض مفاهيم التشكيلة الخطابية، الخلفية والإيديولوجيا.

ما اقترحه تحليل الخطاب الأول هو إذن "نظام" متمفصل: ما بين الخطاب هو فضاء مؤلف من مجموع خطابات سابقة يتأسس عليها مصطلح داخل الخطاب، وهو فضاء تهيمن فيه تشكيلا تحليل الخطاب طابية منفصلة فيما بينها محيلة إلى "تشكيلات إيديولوجية معارضة، (كورتين Courtine) ومخفية واقعا قوامه ضرورة تحدث "ذلك" الذي سبق حدوثه (الخلفية) تحدثا قبليا (إنه الأثر الناتج في كل الأحول)، ثم وضع كل هذا النظام قصد محاولة الإجابة عن السؤال التالي: كيف يكون تمفصل الأيدولوجيا والخطاب؟ كيف يكون تمفصل ما يقع خارج الخطاب، وقبل الخطاب (أي بالجملة ما يقع خارج الخطاب) وكذا الممارسات الخطابية المنجزة في صيغة أشكال لغوية؟

سيدل ما بين الخطاب، بالمعنى الواسع (lato sensu) للكلمة، على العلاقات التي يعقدها خطاب ما مع خطابات أخرى تكون عادة سابقة فيقترب بذلك من مفهوم التناصية.

يوظف النقد الاجتماعي من جهته مصطلح ما بين الخطاب كبديل التناصية، وذلك في مسعى تجاوز المركزية النصية التي اتسمت بها الدراسات الأدبية، ولم يستعمل ذلك المصطلح استعمالا حرفيا بل نجد على سبيل المثال، عند أونجنو(1998) حديثا عن "مجموع وقائع الخطابية (discursivité)"، وعن "الحوارية ما بين الخطابية (interdiscusif)" بل عن الخطاب الاجتماعي: لما يتحدث أونجنو عن "الإشاعة الواسعة للكلمات والخطابات المتعايشة والملتقية في مجتمع ما"، والتي يسميها خطابا اجتماعيا، يمكن التساؤل فعلا عن دواعي عدم انصهار ذلك الخطاب الاجتماعي مع ما بين الخطاب، بل حتى مع التشكيلة الخطابية، فالخطابات الاجتماعية تشكل عند أونجنو، وبصفة فعلية "نظاما مركبا وتفاعليا تعمل فيه الاتجاهات القيادية وتنتظم فيه الحركات(migrations)" (ص 134).

تساوى روبين، وهي تختار الخطاب عوضا عن النص باعتباره وحدة دالة، بين ذلك الخطاب الاجتماعي وبين ما تسميه السياق الداخلي المكون مما يتحرك داخل الاجتماعي، ومما قيل سابقا وكتب سابقا ومما هو من المشهورات (doxique) ومن المعنى المشترك والمسكوت عنه، بل ومما لم يفكر فيه (impensé) (1992، ص104).

تهدف مجموع الخطابات المتحركة، والتي تسمى خطابا اجتماعيا، إلى إقامة تصور حول موضوع وإطار مرتبطين بضبط الخطابات، رابطة الوقائع الخطابية وما بين الخطابية ربطا وثيقا. ويستهوينا ما يظل مفهوما أكثر مما يستهوينا ما هو تصور بحكم عدم تجانسه، واضعا جانبا التمفصل الشائك الحاصل في الخطاب وفيما هو اجتماعي. وإذا كان الخطاب في جوهره اجتماعيا مثلما يكون النص نصا اجتماعيا فإن ما يتم البحث عنه يدمج وفق ذلك المنطلق

في الموضوع. ويبقى المستوى الرفيع الذي تنتظم على أساسه تلك الشظايا مستوى لا سبيل لإدراكه.

تعد التشكيلات الخطابية مفهوما شديد التركيب: إنه تصور سمته الاختفاء (غيلومو Guilhaumou، 2005)، وهو موضوع مؤسس لـ تحليل الخطاب لكنه قليل الاستعمال في نهاية المطاف، وقد تكرر الاشتغال فيه إلى حد استنفاذ الإمكانات التصورية (مارا في ذلك من تصور متجانس إلى تصور غير متجانس)؛ وأعيد توظيفه بصفة دورية (كما هو الحال مثلا خلال ملتقى كاستريس castries الذي نظمه بول سيبلو- Paul Siblot- سنة 2002). فهل بإمكان التشكيلات الخطابية أن تقترب من مخطط العلاقات الاجتماعية sociogramme لدوشي بل حتى أن تتماثل معها، أي هل بإمكانها أن تكون "مجموعة (مجموعات) مرتجة، غير ثابتة ومتعارضة، تحكمها الصدفة؛ وأن تكون ذات تمثيلات جزئية متفاعلة مع بعضها البعض... تدور حول نواة تكون هي أيضا تعارضية (متوقعة على خط النقد الاجتماعي)؟

ما يبدو في الواقع هو أن كل تشكيلة خطابية تكون في صلات مع مخطط العلاقات الاجتماعية (sociogrammes)، أي أنه يمكن، إلى حد ما، التقريب (لا تنضيد) بين مخطط العلاقات الاجتماعية والعنصر الإيديولوجي: يحدد هذان المصطلحان مستويات وسيطة لضبط الوساطة بين العالم والخطاب.

إيديولوجيا، رؤيا العالم، خاصية اجتماعية: مصطلح أول بولغ في وصفه (surmarqué) وثان تجاوزه الزمن وثالث قليل الاستعمال. لقد وجدت هذه المفاهيم المهملة اليوم نفسها محل تعويض مفاهيم هي مفاهيم المشهورات(doxa)، المعنى المشترك، الأماكن المشتركة، النماذج الأحادية والإكليشيهات (أموسي وهيرشبرغ- بييرو Herschberg- Pierrot، 1997) والتمثيل [3]. فهي تقترح رؤية متقاربة (ما يتم تقاسمه) وأقل تعارضا (يقرب المعنى المشترك بين المجموعات

الاجتماعية أكثر مما يقسم تلك المجموعات). وتدخل في هذا التوجه عملية إنشاء تداولية سرفاتي (Serfati) (2000) خاصة بالمقاييس (pragmatique des normes)، أو مقترح بافو (Paveau) (2004) القاضي بوصف تظاهراتحليل الخطابطابية مرتبطة بالمعنى المشترك (أشكال معجمية، تلفظية، صيغية، معرفية نصية (congnitivo-textuelles).

هل عاش صراع الطبقات؟

إن تحليل الخطاب النقدي (critical discourse analysis) هو من استرجع المشروع الإيديولوجي النضالي لـ تحليل الخطاب المرتبط بالساعات الأولى، أو بالأحرى هو من جعله يتمفصل في إشكالات معاصرة "ملتزمة" مرتبطة بالعنصرية وتحليل الأجناس. ماذا عن النقد الاجتماعي؟

إنه لا يخشى، على كل، كلمة إيديولوجيا: لم يتردد النقد الاجتماعي في اللجوء إلى عناصر أيديولوجية وابتكار والممارسة الأيديولوجية (idosèmes) (عند إدموند كروس Edmond Cros). لقد أصبح مصطلح العنصر الأيديولوجي مهملا بعض الشيء في تحليل الخطاب، لكن الأمر ليس كذلك مع ما قام بتغطيته تغطية مفهومية، ذلك لأنه يؤسس شبكة مع الموضع (topos) والعبارات الثابتة (locutions figées) والافتراضات المسبقة والتناصيات. وتلك التغطيات هي ما يفسر كثرة التعريفات المنبثقة أساسا من حلقة باختين، والتي نذكر منها تعريف كريستيفا في سيميوطيقا (seméiotiké) الذي استعارته من ميدفديف (Medvedev) (1928): "وظيفة تقوم بربط الممارسات عبر اللسانية (translinguistiques) لمجتمع ما اعتمادا على تكثيف الصيغة الفكرية المهيمنة" (1969، ص60). ومصدره مقال صدر سنة 1967 بعنوان: "المعنى والموضة" (Le sens et la mode). أي إن العنصر الأيديولوجي وظيفة تناصية صارت مادية، إنها الوظيفة التطورية (évolutive) لدى أونجنو (ينظر على وجه الخصوص: 1979،

1982): يدل العنصر الإيديولوجي أولا على "قاعدة متوارية داخل ملفوظ والتي يرسم موضوعها حقلا خاصا من الحصافة (pertinence)"، ثم يدل بعد ذلك العنصر الأيديولوجي "في الوقت (على) ملفوظ منحرف عن قاعدة شبه منطقية و(على) تركيب إيديولوجي" (1982، ص.182).

سيوظف النقد الاجتماعي المصطلح للدلالة على "نظام مصغر سيميائي إيديولوجي متفرع عن وحدة وظيفية ودالة للخطاب" (كروس، 2003، ص196)، وهو النظام الذي يقوم كروس بتوضيحه انطلاقا من مصطلحي موروث (patrimoine) وما بعد الحداثية (postmodernité) بينما الممارسة الأيديولوجية (l'idéosème) "عنصر مكون لممارسة اجتماعية تم تحويلها إلى النص تحويلا مباشرا" (المرجع نفسه): من أمثلة الممارسة الأيديولوجية (idéosèmes) الظهر والوجه، القناع والكشف، أي باختصار أقطاب مفهومية تلعب دور مفاصل بين النصي والاجتماعي (كروس، م س، ص38).

عوضا عن العنصر الأيديولوجي يوظف زيما (2000) مصطلح اللهجة (sociolecte) للدلالة على "العلاقة الرابطة بين الرواية وبنياتها في الوضعية اللغوية الاجتماعية" (ص.147)، ويتحدث عن اللهجة الإنسانية المسيحية في رواية "الغريب" (L'étranger) لكامو. وزيما على وعي تام بذلك التحول الذي يقوم بشرحه بشكل مطوّل نسبيا، إنه ليس تحوّلا مصطلحيا فحسب بل هو نظري أيضا، لأن ذلك التمفصل الجديد يسمح، في نظره، بـ "احتساب الإيدليوجيا على المستوى الخطابي باعتبارها بنية دلالية وسردية" (م.س) وإنشاء علاقة مع الوضعية اللغوية الاجتماعية، أي مع المظاهر النظامية للغة(كما هو الحال عند بليبار Balibar الذي ذكره زيما، ص. ص 160، 162).

ترتكز كل تلك العمليات القائمة على "صياغة المفاهيم" (باعتبار وضعها المتقلب والقابل لإعادة نظر تجاه مسألة ثبات التصوّر) على الرغبة في إدراك

الوسائط، سواء كانت اجتماعية أو نظامية أو خطابية، فهي تظهر إشكالية مشتركة بين تحليل الخطاب ون ا المنضمين إلى النظرية الباختينية انطلاقا من مرجعيتهما.

أتكون مسألة الفرد، أو لنقل بالأحرى مسألة الذات، هي من سيفصل في نهاية المطاف الحركتين؟ لقد كان تحليل الخطاب الأول قائما (حيا) على "موت" الذات. إنه على أية حال موت الذات الحرّة، المستقلة، ذات علم النفس والإنسانية، ومقابلة ذلك بالذات الخاضعة المرتبطة بالماركسية والذات المرتبطة بالتحليل النفسي اللاكاني.

لكن التوجه الفكري لـ تحليل الخطاب سيعيد للمتكلم المتلفظ مكانته في منعطف الثمانينات حيث حصلت لقاءات مع اللسانيات البنفنيستية (benvenistienne)، فسعى النقد الاجتماعي، وهو ينخرط انخراطا تاما في الحركة البنيوية المتأثرة بـ لاكان (Lacan) وألتوسير، لتطوير نظرية نقدية اجتماعية للذات "الثقافية" (بعد ما عرف بالذات عبر الفردية Transindividuel) في البنيوية الأجناسية، إذ لم يرغب في جعل الفرد بمثابة ظاهرة عرضية(épiphénomène) لما هو اجتماعي (كما يقول بذلك الفيلسوف فيراروتي Ferraroti)؛ وتعين عليه- وهو يشتغل بذلك على وجوه بارزة في الفضاء الأدبي- أن يعمل بمقتضى "الذات" التي عدت صورة أدبية فردية ومتجسدة وناطقة باسم غيرها.

تظهر بالمقابل مقترحات زيما القاضية ببدء العمل من مفهوم اللهجة (sociolete)، ومقترحات غيلومو القاضية بإعادة النظر في التشكيلات الخطابية وجعلها بمثابة "مجموعة الأسماء الخاصة المضبوطة والمقترنة بالخطاب في عموميته" (م.س)، تظهر تلك المقترحات أن الذات تستعيد مكانتها، عبر بعد

نقدي اجتماعي، داخل مقارنة خطابية للإيديولوجيا، سواء تعلق الأمر بنص أدبي أو بمدونات أخرى.

تحيل طبيعة المدونة في النهاية، باعتبار الأدب نصا اجتماعيا (بوضع خط قصير أو دون وضعه تبعا للأوضاع النظرية، لكن بالإشارة إلى كون النص نصا اجتماعيا في الواقع وعلى وجه الدوام) إلى إشكالية الحقل الأدبي. هل المدونات هي إذن ما سيبعد تلك الحركتين عن بعضهما البعض؟ ومثلما هو الحال أثناء الانتقال من تحليل خطاب إلى تصور خطاب اجتماعي أفلا نجد ذلك سوى في تحليل الخطاب؟

المدّونات:

احتلت مسألة تكوين المدونة مكانة مركزية في بدايات تحليل الخطاب الأولى، أي في نهاية الستينيات، وظهر ذلك بصفة خاصة في فضاء تحليل الخطاب باعتباره موضوع التاريخ والذي كان من وضع الأعمال الريادية لـ ريجين روبين (1973) ومركز الدراسة المعجمية السياسية للمدرسة العليا للأساتذة (ENS) التابعة لسانت كلود (Saint-cloud) (غيلومر، 2002).

لم يول تحليل الخطاب، في بداياته، مكانة خاصة لمسألة الأجناس الخطابية، فضلا عن كون مفهوم الجنس مفهوما مدرجا، بصفة عامة، ضمن فئة إيديولوجية سابقة الوضع(ينظر: غيلومو، م س). سنشقى كثيرا للعثور على أفكار مرتبطة بالأجناس ومخصصة لها عند بيشو؛ أما باختين فلم تكن العودة إليه باعتباره مرجعية مهيمنة في ساعات تحليل الخطاب الأولى (رغم أو بسبب القبول الإعلامي الذي لقيه في فرنسا سنة 1970).

يعني اكتشاف باختين، الذي سيقوم تحليل الخطاب ون ا كلاهما بدمجه بصفة تدريجية، انطلاقة جديدة مرتبطة بتفعيل مسائل عدم التجانس والحوارية التي يدعمها تفكير حول الأجناس، الرفيعة منها والوضيعة، انطلاقا

من أكبر أمثلة الأدب (رابليه، دوستويوفسكي). وفي هذا التوجه القائم على المدونات المثالية (رغم تصوراته الموسعة بخصوص الأجناس) يكون باختين أقرب من المشروع النقدي الاجتماعي منه من مشروع تحليل الخطاب. وتحليل الخطاب هو من يحدث نقلة في الموضوع ليضع نفسه في المدار الباختيني بأخذ تنوع الخطابات الاجتماعية بعين الاعتبار.

ليس الأدب فعلا هو المدونة التي تتبادر إلى الأذهان حينما يكون الحديث عن تحليل الخطاب، فقد سمح تحليل الخطاب بفتح مجاله لمدونات جديدة كانت نظامية في البداية، ويتعلق الأمر بمدونات التاريخ والسياسية، لتكون شيئا فشيئا عادية (بالمعنى الذي تمنحه فرقة سديسكور Cédiscor، من باريس Paris III -III، للكلمة) إلى أن أصبحت اليوم تدمج الممارسات الشفوية. والموضوع الأدبي تابع، في إطار نظرية ماركسية هي من قواعد تحليل الخطاب، للإديولوجيا المهيمنة: صيغة التنديد الإيديولوجية هي وحدها ما يأخذ بالحسبان باعتبارها جمالية بورجوازية.

إن فصل تحليل الخطاب الجذري عن الأدب هو أثر لعملية جعل الحقل متجانسا: فقد أنجزت أولى التحليلات المعجمية، التي أقيمت بسانت كلود مع موريس تورنييه (Maurice Tournier) حول نصوص مؤلفين كبار، من أمثال روسو (Rousseau) وهوجو(Hugo) وزولا (Zola)، وكانت أيضا مساهمة بعض ممثلي تحليل الخطاب التعليمية عاملا حملهم على مواجهة الموضوع الأدبي النظامي بموضوع الكتب المدرسية وقسم الفرنسية مواجهة رمزية. أولم يلتفت ريجين روبين وجان بيير فاي (Jean Pierre Faye) نحو الكتابة الأدبية- بما فيها السيرة الذاتية الخيالية (l'autofiction)- جراء عودة عجيبة للذات التي كانت موضوع اعتراف ريجين روبين وتنظيرها (ينظر إلى الاستجواب الخاص بها في جيغير Giguère، 200)؟

لقد سمح انتشار أعمال مانغونو، في نطاق تحليل الخطاب بالمعنى الواسع للكلمة، بفتح المجال أمام دراسات أدبية في تحليل الخطاب دون أن يتخذ ذلك بالمقابل مدونة تحليل مميزة: سيتم بذلك عزل عدد من مجلة كلمات (MOTS) مخصص للرواية السياسية (العدد 54، وتستثنى من الأعداد الأخرى مقالات دانييل بونو لاموت Danielle Bonnaud-Lamotte الذي اتخذ سنوات الثلاثينيات وأدبها مدونة له، وكذلك مقال بربوس Barbusse والعدد 14 المنقضي في 1990، إلى جانب مقال بافو في العدد المخصص للنزعة الشعبية populisme في الرواية الشعبوية populiste، أي الرقم 55، 1998): نلمس هنا مقدار شساعة حقل دراسة أدبية منظور إليه عبر شاشة سياسية، ويتجلى ذلك انطلاقا من فاليس (Vallès) إلى غاية أوليفييه رولين (olivier Rollin) مرورا من الرواية السوداء في ألبانيا والمؤلفين القدامى (من مثل فرانسواز شاندرناغور Françoise Chandernagor).

يزداد تحليل الخطاب تفتحا على المدونات العادية، وبعد استثماره لمدونات الصحافة بدأ أيضا يغامر في ميادين من طبيعة أنتربولوجية وحديثية (conversationnel) وعادية أكثر من مغامرته في الأدب، أما النقد الاجتماعي فإنه حتى وإن استطاع توسيع حقل علمه نحو النصوص المصاحبة الأدبية ونحو سيميائيات أخرى (كالسينما مثلا) فإن الموضوع الأدبي يشكل معه، بصفة لا يستهان بها، جوهرا واحدا. ويسعى المشروع النقدي الاجتماعي لتأسيس نظرية للأدب، وهو الطموح الغائب في تحليل الخطاب الذي لا يزال يسعى لأن يكون "تأويلا" للخطابات.

تغيرت أيضا وجهة تحليل الخطاب بخصوص البعد المرتبط بتعدد الأصوات (polyphonie) والتعدد اللغوي (plurilinguisme)، رغم أنه كان بعدا مركزيا عند باختين. بينما يحتل ذلك المسعى المقارن بوضوح مركز اهتمامات نقد

اجتماعي صيغ على طريقة بيير زيما (موزيل Musil، بروسن Prust، كافكا kafka) و"كروس" (أدب إسباني)، كما هو حال الأعمال التي أنجزها ج. م. آدم ويـــوت هـــايدمان (Ute Heidmann) (إجراءات عبر نصية transtextuelle ومقارنة الأجناس) في التحليل النصي المقارن.

هل علينا أخيرا أن نفكر في وجود مدونات مرتبطة بـ تحليل الخطاب ون ا ارتباطا خاصا و"مفروضا"، كما هو حال النصوص السياسية بالنسبة للأول وأدب القرن التاسع عشر بالنسبة الثاني؟

ختاما:

نستخلص من هذه المسيرة المعرفية النقدية أن الإشكالات المشتركة بين تحليل الخطاب ون ا- كالوساطة (فلنتحدث عن التدوين في النقد الاجتماعي وعن الحركة في تحليل الخطاب) في أشكالها الاجتماعية والنقدية- لم تقارب رغم ذلك بين الحقلين، ومرد ذلك دون شك ارتباط النظام القاعدي للتخصصات بموضوعها لا بنظريتهما. ومع ذلك فإن المشروع الإيديولوجي والمناهج والمرجعيات النظرية والباحثين تجعل من تحليل الخطاب ون ا شريكين طبيعيين.

يكون إذن اتحاد تحليل الخطاب ون ا أقل إمكانا في عملية التحول المفهومي والتصوري وفي مسألة المدونات الجديدة على حدّ سواء. ونختتم هذا المقال ببعض هذه الأسئلة المفتوحة: ما فائدة أن يكون تحليل الخطاب مشدودا إلى الأدب، ليس الرفيع منه فحسب إنما "الوضيع" أيضا؟ ما فائدة أن يفصل النقد الاجتماعي عن موضوعه المميز (ذلك ما فعله فعلا تجاه سيميائيات أخرى، كالسينما)؟ أي تحالف جديد ينبغي تأسيسه لبناء مواقع مراقبة جديدة؟ نحو أي (أية) تحوّل (تحولات) نظري (نظرية) تقود تلك المدونات الجديدة؟

لورانس روزييه (Laurence Rosier)

قائمة المصادر والمراجع:

- Amossy R. et Herschberg-Pierrot A., Stéréotypes et clichés. Langue, discours et société, Nathan, Paris, 1997.
- Amossy R. et Maingueneau D., L'apport de l'analyse du discours: un tournant dans les études littéraires?, Presses universitaires du Mirail, Toulouse, 2003.
- Angenot M., Le Glossaire pratique de la critique, 2ème édition (1ère éd. 1972), Hurtubise HMH, 1979, La Salle, 223p., pp. 99-100.
- Angenot M., « Que peut le littérature? Sociocritique littéraire et critique du discours social », in J. Neefs et M. C. Ropars, 1992, p.9-27.
- Angenot M., « Analyse du discours et sociocritique des textes », in C. Duchet(éd.), 1998, p. 125-140.
- Charaudeau P. et Maingueneau D. Dictionnaire d'analyse du discours, Le Seuil, Paris, 2002.
- Cros E., La sociocritique, L'Harmattan, Paris, 2003.
- Dictionnaire du littéraire, P. Aron, D. Saint- Jacques et A. Viala (éd.), 2002.
- Duchet C. et Vachon S., La recherche littéraire: objets et méthodes, XYZ éditeur/ Presses Universitaires de Vincennes, Montréal, 1998.
- Giguère S., Passeurs culturels, les éditions de l'IQRC, Laval, 2001. (Interview de Régine Robin, p. 235-258).
- Guilhaumou J. et Maldidier D., « Courte critique pour une longue histoire », In Dialectiques, n°26, 1979, p. 7-23.
- Guilhaumou J., « Le corpus en analyse du discours. Perspective historique », in Corpus, n°1, 2002, p. 21-50.
- Guilhaumou J., « Où va l'analyse du discours? Autour de la notion de formation discursive», in Marges linguistiques, n°9, 2005, en ligne.
- Jaubert A., « Corpus et champs disciplinaires. Le rôle du point de vue», in Corpus, n°1, 2002, p. 71-88.
- La politique du texte: enjeux sociocritique, textes réunis par Jacques Neefs et Marie- Claire Ropars, Presses Universitaires de Lille, 1992.

- Léon P.-R. et Mitterand, H., L'analyse du discours, Centre éducatif et culturel, Montréal, 1974.
- Mitterand H., Le discours du roman, PUF, Paris, 1980.
- Maingueneau D., Genèses du discours, Mardaga, Liège, 1974.
- Paveau M.- A., Les cadres du discours: des pratiques lexicales à l'analyse linguistique du sens commun, synthèse pour l'habilitation à diriger des recherches en sciences du langage, Université Paris 3, Sorbonne Nouvelle, 2004.
- Paveau M.- A., « Les sirènes folkloriques de la nostalgie académique: Les chevaliers du subjonctif et autres sauveurs d'enseignement en détresse», in Le Français aujourd'hui, n°149, 2005.
- Pêcheux M., « L'étrange miroir de l'analyse du discours», in Langages, n°62, 1981, p.5-8.
- Robin R., « Discours politique et conjoncture», in P.- R. Léons et H. Mitterand (éd.), 1974, p.137-147, discussion p. 147-157.
- Robin R., « Pour une socio-poétique de l'imaginaire social», in J. Neefs et M. C. Ropars (éd.), 1992, p. 95-121.
- Rosier L., « L'approche du discours rapporté renouvelée par l'analyse du discours: un bilan critique et une piste de recherche», in R. Amossy et D. Maingueneau (éd.), L'analyse du discours dans les études littéraires, Presses Universitaires du Mirail, Toulouse, 2004.
- Rosier L., « L'analyse de discours et ses corpus à travers le prisme du discours rapporté », in Marges linguistiques, n°9, en ligne, numéro coordonné par Dominique Maingueneau, 2005.
- Sarfati G. E., Précis de pragmatique, Nathan, Paris, 2002.
- Zima P., Manuel de sociocritique, L'Harmattan, Paris, 2000.

الهوامش:

*- Laurence Rosier, « Analyse du discours et sociocritique. Quelques points de convergence et de divergence entre des disciplines hétérogènes», in Littérature, Larousse/ Armand Colin, n° 140, Paris, décembre 2005, p.14- 29.

يوجه المؤلف رسالة شكر إلى زميلين له في هامش الصفحة الأولى من المقال قال فيها: "أشكر ماري آن بافو لقراءتها المتمعنة ولتصويباتها، كما أشكر روث أموسي لاقتراحاتها الشكلية. وكما يقال فإن الأخطاء والهفوات هي أخطاء وهفوات المؤلف".

1- مختصر تحليل الخطاب من الآن فصاعدا ت خ، ومختصر النقد الاجتماعي من الآن فصاعدا النقد الاجتماعي)

2- "تكونات الخطاب" هو العمل الوحيد الذي لا يعد "كتابا عمليا" إنما هو عمل نظري.

3- كانت هذه المسائل موجودة أيضا في ت خ عبر مفهوم الخلفية (préconstruit).